

تمهيد:

لقد احتلت تيمة "المدينة" في الشعر العربي الحديث والمعاصر مكانة كبيرة، فقلما نجد شاعرا لم يكتب عن المدينة التي وُلد فيها أو التي يسكنها أو زارها، مهما كان موقفه منها، فما هو مفهوم المدينة؟ وكيف حضرت في الشعر العربي المعاصر؟.

1- مفهوم المدينة:

يرى "ابن خلدون" أنّ "الإنسان مدني بالطبع أي لابد له من الاجتماع الذي هو المدينة في اصطلاحهم وهو العمران"، ومنه نستنتج أنّ مصطلح المدينة يطلق على العمران، الذي يرتبط ارتباطا وثيقا بالتقدم والازدهار في مختلف جوانب الحياة.

2- حضور المدينة في الشعر المعاصر:

2-1- المدينة كتجربة إبداعية أصيلة:

تمثل قيمة المدينة في شعرنا المعاصر ظاهرة بارزة، لا يمكن تجاهلها، فما من شاعر معاصر إلا وقد أدلى بدلوه فيها، واتخذ موقفا منها سواء بالسلب، أو الإيجاب، وسواء أكان الموقف واضحا أم غامضا، صريحا أم مبطنًا؛ كل بحسب تجربته. ومهمتنا الآن هي تتبع هذه المواقف ومحاولة استجلاء خلفياتها ومعرفة كنه حقيقتها وأوجه تمظهرها ولا ضير أن يعزى سبب اهتمام شعائنا بالمدينة إلى تأثرهم بالغرب وبخاصة الشاعر "اليوت"، فالتأثر واقع وباعتراف الشعراء بأنفسهم مادام صدق التجربة متوافرا، وغنى اللغة وخصوصياتها ثابتا، وأصالة الطرح موجودة، وعمق التعبير عن الواقع العربي وتفاعلاته كائنا فالشعر العربي المعاصر، مهما تأثر بغيره وهو أمر مشروع لم يكن إلا ابن بيئته؛ فلقد كانت له تجربته الخاصة، تلك التجربة التي تتطلق أساسا من الواقع المعيش، برتابته المضجرة، وتكراره المضني، وأحداثه المعادة بصفة ثقيلة تبدل الحواس وتجمدها لتصير عاجزة عن النفاذ إلى لب الأشياء، ودواخل الأمور، وتكتفي بالسطحي العارض المانح لنفسه بسهولة. ويكمن تفردا وأصالتها أيضا في محافظتها على خصوصيتها، وخلقها لعالم متفرد. فهذه التجربة قد وعت عالمها وأدركت مأساويته التي تختلف في كثير من مناحيها عن مأساوية الحضارة

الغربية. فإذا كانت الحضارة الغربية وبالأخص مدينتها قد قدمت لشاعرها أشياء وسلبته أشياء، منحته الرفاه المادي وسلبته السكن الروحي، فإن المدينة العربية، أخذت ولم تعط، أخذت الاطمئنان الروحي، ولم تعط إلا الانكسارات والهزائم المتوالية، إضافة إلى أن العلاقات الاجتماعية فيه أقل تعقيدا وتركيبا من نظيرتها الأوروبية، كما أن سرعة الزمن فيها أقل إيقاع، وبالتالي فإن إيقاع الحياة بطيء هو الآخر، وذلك لأن المنجزات المادية أقل تطورا وتعقيدا، وبالتالي فإن الصورة الشعرية لا بد وأن تكون أيضا أقل تعقيدا وبسبب من ذلك الإدراك، تكون تجربة شعرنا المعاصر مع عالم المدينة، قد تمكنت من تأسيس فرادتها وخصوصيتها حين استطاعت استيعاب واقعها، وتعرية خباياها، وفضح أدرانها، وتجليه زيفه، وكشفه لنا بكل تجلياته راسمة لنا مع ذلك ومن خلاله عالما حلميا، لا يمكنه أن يتحقق إلا عن طريق تلك التعرية الراصدة لجزئياته الصغرى، والتفصيلية، ومفارقاته، بدهشة طفلية، توحي لنا بجدة الاكتشاف وفرادة الرؤية، وأصالة التشخيص، موفرة من خلال ذلك انسجاما رائعا ما بين الواقع والحلم والسرد والمباغته؛ الواقع العربي بكل مظاهره، والحلم المستقبلي بكل صبواته، والسرد الشعري والمباغته الرؤياوية بكل طموحاتها. يقول -على سبيل المثال- عبد الصبور في "قصيدة الخروج" طارحا من خلالها انخلاءه عن مدينته، مبينا أسباب ذلك الانخلاء فإرا إلى الصحراء وحيدا، عازما العيش في مدينة منيرة، مدينة صحو وأضواء، يقول ما يلي:

أخرج من مدينتي، من موطني القديم

مطرحا أقال عيشي الأليم

فيها، وتحت الثوب قد حملت سرى

دفنته ببابها، ثم اشملت بالسماء والنجوم

انسل تحت بابها بليل

لا آمن الدليل، حتى ولو تشابهت علي طلعة الصحراء

وظهرها الكتوم

.....

إن عذاب رحلتي طهارتي

والموت في الصحراء بعثي المقيم

لومت عشت ما أشاء في المدينة المنيرة

مدينة الصحو الذي يزخر بالأضواء

والشمس لا تفارق الظهيرة

أواه يا مدينتي المنيرة

مدينة الرؤى التي تشرب ضوءا

مدينة الرؤى التي تمج ضوءا

هل أنت وهم وهم تقطعت به السبل

أم أنت حق؟

أم أنت حق؟

والتجربة كما تتبدى لنا في هذا المقطع - الذي آثرنا الاقتصار عليه هنا كنموذج، ليس هو بالضرورة الأكثر تمثيلا لما نريد إثباته، فغيره كثير - تختلف اختلافا كبيرا عن مثيلتها عند الشاعر الغربي الحديث، سواء من حيث مستوى الطرح وأبعاده، أو من حيث طبيعة التجربة ونوعها، أو من حيث المضامين المراكز عليها بكيفية أكثر من غيرها. بل وحتى من حيث الرموز المبنوثة في ثنايا القصيدة، والتي تؤلف -في مجملها- عبر تواسجها، رمز الخلاص والبعث لدى الشاعر العربي، والتي تتلاءم مع واقعه -اللامنطقي- الذي يختلف في كثير من

مناحيه وألوياته عن واقع الشاعر الأوروبي ذي الرفاه المادي بالرغم من مبالغات شعرائهم في تصوير الفقر وتضخيم المآسي الاجتماعية هذا بغض النظر عن الانهيار الروحي. فالمدينة العربية-كما سبق وقلنا- ليست كالمدينة الغربية التي أعطت شاعرها شيئا، وسلبته أشياء، بل إنها لدائمة السلب له، بل والانسلا ب معه، فهي قد أخذت منه كل شيء ولم تعطه شيئا ولذلك فمعاناة الشاعر العربي- ومع الإنسان العربي عموما - متعددة الأوجه والأطراف، فهو يعاني على مختلف الأصعدة والمستويات، فعلى المستوى "الداخلي الفقر والقمع..." وعلى المستوى الخارجي "التبعية والتخلف..."

ولقد أدرك شعراؤنا المعاصرون -بوعي كبير- هذه المفارقة بين واقعنا وواقع الغرب، كما تلمسوا ذلك الفرق الشاسع بين حياتنا وحياتهم، طموحاتنا ... ولذلك استكفوا بأنفسهم عن أن يقعوا في دائرة المحاكاة الفاضحة والتقليد الأعمى، أو النسخ الباهت لتجارب الغير، فالشاعر العربي أدرك واقعه بعمق، وعاش خيباته المتلاحقة واكتوى بناورها، فراح يسعى لتغيير هذا الواقع -متأرجحا بين الأمل الكبير حينا واليأس القانط حينا آخر- عبر محاولة العودة إلى عالم البراءة الأولى حينا، وإلى زمن الخلق والبعث والتضحية أحيانا أخرى، متوسلا الشعر طريقة لهذا التغيير- الشعر الثوري المشبع بأساطير الخلق والخصب والتجدد والبعث والنماء- والمدينة إطارا لهذه الأحداث؛ أحداث واقعه كان هذا مستوى تجربة المدينة- باختصار شديد- في بعدها الحضاري، فكيف كانت تجربتها على المستوى الحياتي والواقع اليومي المعيش؟

2-2- ظاهرة المدينة كتجربة حياتية:

تتألف وتتماوج الإبداعات الشعرية العربية المعاصرة، في فضاء المدينة بكيفية ملفتة للنظر إلى حد يمكن لنا -معها- الزعم بأنها تؤلف ما يحتمل أن نسميه بـ"الظاهرة"؛ هذه الظاهرة التي استطاعت أن تعطي لموضوع "المدينة" بفضل الأبعاد المختلفة والمتجاوبة في آن واحد- "خصيصة التجربة، لها فتجربة المدينة -شعريا- تعود بنا حتما إلى البدايات الأولى، ذلك لأن موقف شعرائنا المعاصرين ورؤيتهم لها، تنهل - بالضرورة- إن قليلا أو كثيرا- من

رؤية أسلافهم لها، وتسبح في فضائها، مع محاولة التجاوز -بطبيعة الحال والتي نجحت فيها إلى حد كبير حتى لأنها غدت من أبرز الظواهر التي يمكن أن نلمسها ببسر، في الخطابات الشعرية المعاصرة، وهذا لا يعني -كما سبق القول- أنها بنت المعاصرة، أو صنو الحداثة . بل أن الاهتمام بها - كفكرة وكتجربة-، - قديم قدم التاريخ الإنساني-. ولكن ما يستقطب الاهتمام في الشعر العربي المعاصر، هو حدة الطرح، ومنهجية التناول

وخصوصية التعبير وفرادة الرؤيا وحدائتها، بالإضافة إلى حرارة المعاشة وصدق المعاناة وعمق الإدراك ليصبح توظيف المدينة في الشعر العربي المعاصر "قيمة فنية" أو ما يمكن أن نطلق عليه "التجربة القيمية" من حيث كونها تعبر عن تجارب إنسانية ناضجة في علاقتها الاجتماعية. وعلى هذا النحو قد لا نغالي إذا تصورنا أن تجربة المدينة في قيمتها الفنية ترسم مشاعر موضوعات القصيدة لتصبح في شكل "دلالة"؛ دلالة الانسجام بين المعطيات الموضوعية والحدود المرسومة لاستبطان الإدراكات التي تجري في مستويات حالات التجارب اليومية، فيقرها الشاعر في باطن هوية القصيدة من خلال تعدد وثبات

الصور المتطلعة إلى الحدود الموضوعية للتجربة في صورتها الكلية فالمتتبع لدواوين الشعر العربي المعاصر، يتبين، بكل جلاء، مدى سيطرة هذه الظاهرة واحتلالها لحيز أكبر في جسد قصائده إذ "أن كثيرا من الشعراء قد واجهوا في قصيدة أو أكثر موضوع المدينة، منذ الديوان الأول "مدينة بلا قلب" لأحمد عبد المعطي حجازي إلى ديوان "قلبي وغازلة الثوب الأزرق" لمحمد إبراهيم أبو سنة، وعنوان الديوان الأول يغنينا عن الحديث عنه، فهو أول ما يكون على موضوعه، أما الديوان الأخير فقد تضمن خمس قصائد هي "حين فقدتك- السر - في الطريق- نرجس والمدينة - ريفية في مدينة الغرباء"، وكلها تتصل من قريب بموضوع المدينة"، ويجب التنبيه إلى أن عدم ذكر لفظة "المدينة" في القصيدة، لا يعني أن هذه القصيدة بعيدة عن موضوع المدينة وتجربة الحياة فيها فهذا الفهم ساذج وسطحي، بل ربما يكون هذا التغييب للفظه، هو أحد الأدلة الأقوى تعبيراً عن حضورها المكثف، وقد يتبدى هذا الحضور - على سبيل المثال- في إبراز المعاناة الذاتية، وظاهرة الاغتراب، وتمزق العلاقات الإنسانية، وانهايار القيم المثلى...

إن المدينة كتجربة وكمكان حضاري يحمل قيمة معينة يعد نقطة ضوء فعالة، لدراسة الذات الإنسانية وحساسيتها الحياتية؛ إذ بها، وفيها، تتكشف الصراعات الاجتماعية، والسياسية، والحضارية، وبالتالي صيرورة المجتمع وحركيته، وفيها يمهد للمستقبل، ويتأسس كيان الأمة وفردانيته وثوابتها وكذا تطورها، فكيف تبنت صورتها الخارجية للشاعر، هذا الوافد الجديد من الريف من أول لقاء له معها، وبخاصة إذا كنا نعلم أن عددا غير قليل من الشعراء المعاصرين هم ريفيي النشأة، ثم هاجروا إلى المدن، هذه المدن التي كانت في خيال الشاعر جنة موعودة، يأمل أن يحقق فيها كل أحلامه وصبواته؟ فكيف كان الانطباع الأولي لهذا اللقاء، وبخاصة مظهرها الخارجي الذي يختلف في كثير من أشكاله عن الريف، وعلى اعتبار أن أول ما يتحفظ في الإنسان ويتنبه هو الجانب، وبالأخص في مكان كالمدينة بكل مظاهرها المادية.

3-3- الكيان المادي للمدينة:

لعل أول ما يلفت أي وافد جديد إلى المدينة، هو طبيعة عمرانها، أي الوجه الخارجي والمادي لها - قبل الانخراط في وتيرة حياتها - والذي تلتقطه العين، قبل أن تكتوي به النفس. ولما كان أهم ما يميز المدينة، أو كل مدينة عصرية، هو علو جدرانها، والارتفاع الشاهق لأبنيتها، والتنظيم الآلي الأتوماتيكي للحياة فيها، وتخصص أمكنتها، وضيق أزقتها - أحيانا - وكثرة المتسكعين والبطالين فيها، وبراقة منظرها وكثرة أضوائها وغلبة الازدحام والضوضاء على محيطها. فإن هذا كله لابد أن يترك أثرا ما في انطباع الشاعر وبالتالي إحساسه وتوجه حياته فيها لاحقا ولقد التقط الشعراء هذه المظاهر الحسية - الغربية بالنسبة لهم - مشحونة بكثير من الأسى والشجن، كشأن كل غريب جاهل بمعالم المكان وطبيعته فكان أول ما رآه الحجازي هو [شوارع المدينة الكبيرة] التي يتوه فيها الإنسان، كما أنه لم ير [غير البناء والسياح] و[غير المربعات والمثلثات والزجاج]، لقد أدرك بأنه رسي [في مدينة من الزجاج والحجر] بحث [فيها عن طريق فلم يجد له أثر]. كما أن يوسف الخال لم ير في أول لقاء له بها غير [شوارع المدينة الناطحة السحاب، العالية القباب، المغلقة النوافذ]

[المدينة/الزجاج... المقفرة الموحشة]، [الخالية الروح، التي يسكنها أناس]، وكونهم أناس،
نكرة، غفل من الأسماء، أمر يكتف من غربة الشاعر، ويوحى باستبداد الخوف به، ومدى
التوجس الذي يكتنفه لحظة اللقاء الأول.

أما محمد إبراهيم أبو سنة، فإن أول ما استقطب نظره فيها، هو آلية سلوك أهلها، أو بعبارة
أخرى، تحكم الآلة في سلوك الإنسان وتوجيهه:

إشارة حمراء قف

إشارة خضراء من هنا انصرف

أما فاروق شوشة، فإنه هو الآخر، لم ير فيها غير الجدران العازلة

الموحشة التي :

تلوح للعابرين الحيازي

أن انغمسوا في رحابي

ولوذوا ببابي

وأسيحوا، دروبي ممتدة مدهشة

ويصف لنا أمل دنقل أول لقاء له مع المدينة - وكان هذا اللقاء ليلىا - فيرى بأنها (مدينة
دخانية)، زارها : (مقهى فمقهى، شارعاً فشارعاً)، ويستمر في تجواله فيها واصفاً ما رأى
فيقول :

رأيت فيها (اليشمك) الأسود والبراقعا

وزرت أو كار البغاء واللصوصية!

على مقاعد المحطة الحديدية

نمت على حقائق في الليلة الأولى

حين وجدت الفندق الليلي مأهولا
كان هذا الانطباع في الليل، أما حين جاء الصباح:
وانقشع الضباب في الفجر فكشف البيوت والمصانعا
والسفن التي تسير في القناة كالإوز
والصائدين العائدين في الزوارق البخارية
ولعل هذه الغرائب التي شاهدها، وذلك التشرذم الذي عاشه في أول ليلة له في المدينة، هو
الذي جعله يتخيل نفسه -بعدهما أدرك ورطته- يسقط (من طوابق القاهرة الشواهد).
أما الشاعر صلاح عبد الصبور الذي ترك قريته (الزقازيق) والتحق بالقاهرة لأسباب
يوضحها في المقطع الموالي:
نزلتها منذ سنين طالبا للأنس والمؤمن
منحدرا مع الطريق المترب النخيل
والترعة اللابسة الحداد
مآزرا من نبتها الداوي، وطرحة النخيل
منتقلا من قرية حزينة
لقرية حزينة
فإنه يقول عنها حين وصلها:
وصلتها في وسط الصيف، بيوتها التلال
موصدة، لتتقي الأغراب والسخون
صوتها تحت سياط الشمس والرمال

يئن

يئن

يئن

تخطئه مسامع الأرصاد والرجال

تسمعه كلابها الضالة ومحتضروها

بعض المجانين بها

والشاعر الذي رست به سفينة الحديد والصدأ

على تخوم رملها في ساعة الزوال

إنها مدينة لا تشعر الوافد إليها إلا بالاستبعاد، ولا يلتقط من مناظرها إلا القبيحة والمؤلمة، فبيوتها العالية كالتلال موصدة في وجه الأعراب والذين يعد الشاعر واحد منهم، وصوتها يئن، كلابها متشردة، بعض أناسها يحتضرون، كما أن بها بعض المجانين، فهؤلاء وحدهم مع الشاعر يسمعون صوت المدينة أو أنينها، أما الآخرون وحتى رجال الأرصاد فيها، فإنهم لا يعبؤون ولا يأبهون به، ربما لأنشغالهم في غمرة المدينة وزحمتها، وربما لأنهم أوصدوا ببيوتهم بل وآذانهم عن سماع أصوات الضعف والألم والاستغاثة التي تنبعث من المدينة، بل ومن المقهورين في المدينة، والشاعر باتباعه لهذا الأسلوب الجامع للتناقضات، والمؤلف بين المعقول (الشاعر) واللامعقول (المجانين) أو بعبارة أخرى بين العاقل واللاعقل وكذا الحيوانات المشردة، إنما يريد أن يعطينا حقائق عدة دفعة واحدة. وتشويه العوالم التي ينقلها من واقعه، ووضع التناقض فيها، ينبع من حقيقة واحدة هي: الواقع المعاش الذي خالفت الأشياء فيه حقيقتها " وابتعدت فيه عن جوهر أصلها ولا يرى فيها الشاعر الجزائري (محمد زتيلي) نفسه فيها إلا ضائعا، جائعا بين هذه الجموع الغفيرة التي تحترف النفاق والتدليس:

أنا ضائع بين من هاجروا ... بين من ناصرُوا ... بين

... من ناققوا، ضائع بينهم، أيها الناس ضعنا جميعا

تشتت شمل المهاجر

أقصد شمل المناصر

بل قد تجمع شمل المنافق ... أقصد ضعنا

فبالرغم من هذه النزعة الخطابية التي يشي بها هذا المقطع من القصيدة إلا أنها تعكس مدى الضياع الذي يعانيه كل نازح جديد إلى المدينة، التي تصدمه بواقعها المختلف تماما عما آلفه في ريفه البسيط؛ سواء من حيث الأشكال المعمارية، أو من حيث العلاقات الإنسانية الاجتماعية.

مراجع المحاضرة:

أنظر إلى:

- عبد الرحمن ابن خلدون: مقدمة ابن خلدون، دار الكتاب العلمية، بيروت، ط9، 2006.

- محمد مصطفى بدوي: الشعر العربي الحديث بين التقاليد والثورة.

- صلاح عبد الصبور: الأعمال الكاملة.

- محمد بنيس: الشعر العربي الحديث: بنياته وإبدالاتها.

- عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر: قضايا وظواهره الفنية والمعنوية.

- إحسان عباس: إتجاهات الشعر العربي المعاصر.

- محمد زتيلي: فصول الحب والتحول.

- قادة عقاق: دلالة المدينة في الخطاب الشعر العربي المعاصر، دراسة في إشكالية التلقي للمكان.